حديقة المقتطف

غير الشاعر

او افكار فيلسوف

لخليل هنداوي

النبي : لبوشكين

أمير شعراء روسيا

أشعار فيلسوف

١٨٥٤ — ١٨٨٨

[لخليل صفاوي]

لعل طبيعة هذا العبقري كانت جبلة غريبة في اتجاهاً وجهودها الجبارة ، اقترن فيها عمل الخيال والحقيقة والفلسفة والشعر ، ولعل هذا الاقتران سرّ تحيير العبقرية ليدل على ان الشعر والفلسفة هما مادتان تصدران من هوى واحد . وتسيبان الى هدف واحد . ولقد اتم « غيو » على ذلك برهاناً واضحاً — برغم قصر عمره — وكأن جهوده الخفية كانت تلح عليه في اتمام رسالته قبل ان يداهمه الموت . وكذلك أدى رسالته الرائعة ، وكان كالقائد العلم الذي يناديه واجبه هنا وهناك وهنالك ، يزحف من مكان الى مكان ومن نظرية الى اختها ، ومن مبحث الى آخر . . . فله في الفن نصيب ، وله في دراسات الدين نصيب ، وله في الاجتماع والاخلاق نصيب ، وله في عالم الشعر والخيال نصيب

نظم ديوانه « اشعار فيلسوف » في الرابعة والعشرين من عمره ، في سن الشباب المشحون وتأجج العاطفة ، ولكن عقله كان المهيمن على ديوانه ، فيه جملة اهواء وعواطف يتصرف بها العقل بهدوء ، وتكثر قطعة فكرتها السامية الفلسفية ، ولهذا اراك تصدف عن شعره اذا كنت تكره التفكير ، وهذا لا يمنعنا ان نقول : ان شعره وان كان ثقيل الاجنحة كثيف الخيال ، تعوزه تلك الرقة الخالصة ، فهو مثال لشعر المفكر الذي يأخذ الفكرة العميقة مادة مجردة ، ويكسوها جناحين لتحلق بها في عالم الخيال

يمثل « غيو » في ديوانه هذا روح الفلسفة الهائمة القلقة التي تهبط حيناً وادي اليقين المطمئن ، وتهيم حيناً في شعاب الشك . وهذه الروح — برغم قلقها — تندفع بقوة لا تعرف التردد الى ارتشاف جمال الوجود والاندماج فيه ، وتراها في سبيل هذا الاندماج لا تبالي الاخطار ولا يثنيها عن بغيتها شيء . ومن ذا لا يشعر بذلك القلق الذي كان يدفع هذه النفس الى التنقيب في الجزر النائية والعوالم المجهولة . ومن ذا لا يحس حنان هذه الروح التائهة التي تعود العودة الى وجودها الاول كما تعود قطرة الندى الى الشمس . وراء كل هذا الطموح فكرة تدعو الى تضامن اجزاء

الكون واتحاد هذه الاجزاء حتى يصبح الوجود قيثارة واحدة تتجاوب أوتارها وتتلاءم ألحانها

يقول غيو في مقدمة ديوانه تحليلا مدرسته الشعرية « هنالك مدرستان في الشعر احداهما تتعرى عن حقيقة الفكرة وصدق التأثير ، وأمانة التعبير وبساطته ، حتى ترى ان المؤلف قد استعان انساناً . وفي هذه المدرسة لا ترى شعراً يحلو من فكرة او عاطفة تظهر عليه . والمدرسة الثانية ترى عكس ذلك ، فقيمة الافكار وعمقها — عندها — مسألة تابعة للشعر ، وروعة أخيلته وأوهامه لا ترتبط بالفلسفة ولا بالعلم ، وانما الشعر عندها لغة خيال وأسلوب ، وأكذوبة رقيقة لطيفة لا يخدع بها أحد حتى الشاعر نفسه . ألا ترى الممثل — لكي يؤثر في الناظرين ويخدعهم بحقيقة ذلك — تراه يغير صوته ويبالغ في حركاته ، ويتجاوز الحد في التعبير عن عواطفه ، وكذلك الأمر في الفنان عند من يرون « ان النغمة او الكيدة شرطاً ضروري للفن » وهم يريدون ان يكون الشاعر هو نفسه « يسمع قلبه »

ونحن لن نأخذ بهذا المذهب الثاني لانه يضحي بكل جد في الفن . ونرى على عكس ذلك ان الوسيلة الوحيدة لصيانة مقام الشعر ازاء العلم هي ان يطلب الحقيقة كما يطلبها العلم ، ولكن بغير وسيلته وأسبابه ، وعلى غير طراقته . واذا كان من حقهم ان يقولوا ان الشعر هو أدنى الى الحقيقة من التاريخ أفلا يمكن ان يكون اكثر فلسفة من الفلسفة ذاتها ؟

قد يعترض علينا معترض بأن المسائل المجردة للفلسفة والعلم الحديث لم توضع بلغة شعرية ، فنجيبه : بأن الفلسفة — من نواح عديدة — تمس الاشياء الاكثر لمساً وأكثر ما هو أشد قبولا للتأثير . لانها تصبح اذ ذاك عقدة وجودنا نفسه ومسألة مقاديرنا وحظوظنا . والفلسفة في عصرنا هذا تريد ان تحل محل الدين الذي كان عند الشعر ينابيع مختلفة ، على ان لغة الفلسفة لا تنوء في الحقيقة باحتمال الشعر الا حينما تغدو مجردة ضيقة . ولكنها اذ ذاك قد يكون خسارها اكثر من ربحها . فأعمق المعاني تحمله في الغالب ألفاظ بسيطة . وهذه الالفاظ ، في استطاعة الشاعر ان يستعملها فيتصرف بها كما يريد التأثير . وبدلا من ان ينفي العاطفة عن شعره يحيطها بالفكرة الفلسفية . وهذا النوع من التأثير الصادق الذي يرافق الفكرة الفلسفية هو ما نريدان يهيمن على هذا الديوان . فيا ترى هل خدعنا ؟ ولكن هل يمكن ان يكون شيء اقوى من الحقيقة والصدق ؟ او انا برغم كل ما تعنينا لم ندرك شيئاً ؟ القارىء وحده سيحكم ! »

وكذلك نشر « غيو » ديوانه سنة ١٨٨٠ وقدمت له الاندية الادبية وقصدته، وكتب اليه « تين » بعد ان هنأه « ان رأيي في عمق الفكرة كرأيك » وكتب اليه « سبنسر » « وعلى الرغم من اني لا استطيع ان انظر الى اسلوبه الشعري واخيلته فاني استطيع ان اراه من حيث تأثيره الادبية والفلسفية ، انه معجب بتركيب افكارك وعواطفك » . ورأى فيه « سوانبيت » علامة من علامات الشعر الخالد انه لا يفقد قيمة افكاره بالنقل ، وناقشه « كفيلسوف مثالي » يقول بالمثل الاعلى ، على ان الفكرة ليست كما يزعم « غيو » بانها « زهرة صفاء ، وزبد خفيف من امواج صفاء » وان الفكرة ذات قيمة خاصة وتأثير في الكون [1]

مختارات من شعر « غيو »

— ١ —

رحلة تتقيب :

لما كنت طفلاً كنت احلم بالاسفار
وبالرحلات عبر الابحار
وتحت ناظري الحالم كانت تخطر شواطىء جميلة
طافية على الاوقيانوس في ضباب الضياء

اردت اذ ذاك ان امشي ، وان اعمل ، وان اغرس حياتي بكلتا يدي
وانا مرتاح الى النضال ، سعيد بالالم
باذلا بسخاء قواي المضطربة التي احسها في قلبي تجري مع دمي

وحينذاك تفتح يوماً لناظري أفق اكثر حلاوة واشد امعانا في الهرب
من هذه المرافىء الخفية القائمة على ارض مجهولة ، حيث كانت تحملني اليها احلامي .

---

(١) هذه كلمة موجزة لا اراها كافية في توضيح هذه الشخصية . وقد آثرت تخليص المذهب ونظرياته الفنية في المقالات التي انشرها تحت عنوان « النظريات الفنية »

خيل الي اني ارى الحقيقة البعيدة تلمع
واحسست ان رجاء لا نهاية له يخفق قلبي
فنسيت — به — كل فكرة انسانية ، لاقتي في الليل قبسها الالهي

مشيت طويلا ، والوعد الخالد يبسم لي دائماً في اعماق المياه الصافية
مشيت ، وعلى جبيني كانت قبلتي شامخة ، ولكن امي كان ينمو مع الألم
فقلت : ان الالم يقيم قيمة الانسان . . .
فدعوت الالم دون وجل ليلقي على جسدي المنهوك
ايتها الحقيقة ! اريد ان اكون جديراً بك !

مضت الايام وعميت في احلامي ،
والافق الذي كان منيراً قد اظلمت نواحيه
وفقدت حماستي ونشاطي والايمان الذي يرضي ويسمو بي
اصبحت منهوك القوى ، والرجاء في قلبي ذوى

والآن ماذا بقي لي ؟
هل احمل من الغموم المصبورة غصناً منزعاً او حطاماً ، او زهرة تعلق بها عيني ، وافكاري تعود تجد شعاعاً من الايام الذاهبة ؟

لا ! أليس ثمة يقين تستريح اليه النفس ،
فالسماوات باقية على صمتها القدسي ،
ولكني — من اللانهاية القائمة — احسست شيئاً يدخل في قلبي النشوان فيدميه !

— ٢ —

الفكرة

ايها الرسم النوراني الهائم
الذي يبسم ويدخل في نفسي ،
ايها الكائن المجنح ، الذي لا يستقر له جناح !
ايها الفكر المتحرك اهدأ !

ما أنت ؟ لا أدري ، وأراني انتظرك كالأمل ،
فالى أي مدى يستطيع نورك الفياض كشف الحقيقة ؟
ربما كنت تحمل عالماً ، وربما كنت الحقيقة !
اراني شاحب اللون ازاءك
من خوف ومن رجاء معاً
فما عسى ان يكون سرك ؟
بل ارتعش حين احاول أن أقبض عليك .
وجودي كله يحنق ويعنا لنظرتك العميقة
فلماذا تطير عني سريعاً ، وتتوارى عن قلبي ؟
لا تفر ! ايها الفكر الخالد . . .
سعيد من يستطيع ان يستبقيك !
وسعيد من يطير على جناحيك ،
الى أعمق ما في الغد . . .

— ٣ —

الغاصون

وكانت اشجار السنديان الجرداء تمد اذرعها لريح الشمال
ولا يزال زعزع العاصفة يصفر في الجو
وفوق رؤوسنا تتوثب الغيوم المجنونة كطيور ضخمة تأسرها الريح
مشينا نعبر مقوسي الظهور ، حاملين بنصب رؤوسنا التي ناءت بأعباء الفكر
وامام اعيننا تبين الطريق وعرة كالحياة ، وهي مثلها لا تنتهي
وكنا نصعد دائماً
وفجأة لاح من الفهام المفتح لنا من الاعالي شعاع انار لنا البرية القفراء كأنه سقط على قلبينا
وفي هذه اللحظة القصيرة كم رعشة انسابت من الطبيعة الينا ، ومن الاشياء الى انفسنا
وازاء ناظرنا كل شيء قد اختلف وأنشد وتبسم ، وشعرنا بأنفسنا بأن رقة غريبة تتسلل فينا . وخيل الينا ان السأم والالم يفران من هذه الفجوة التي فتحها الشعاع
واحسست اني اصبحت اكثر قوة وأملا
فسألت نفسي « اية قوة غريبة تفيض علينا يدها » !

ان شعاعة شمس تستطيع اذاً ان تبدل قلباً ، والفكر الانساني الذي تقوده الصدف حيث العاطفة يقوده اصبح لا يملك نفسه أليس عقلنا شبيهاً بهذه الشجرات التي يهزها الريح ، ولا تدري من أمرها الا الانحناء للريح !

اني غير قادر — ما دام قلبي يخفق — على ان أدخل فيه في لحظة ما فرحاً أو ألماً ، بل أراني لست حاكماً على دموعي !

بلى ! لكي تفر دمعة من عيني ، او تتولد بسمة مني ، ينبغي ان ترضى عن ذلك هذه الرغبة المتقلبة . وينبغي لشقائي وفرحي ان يكون في جو العالم الفسيح دمعة خرساء وشعاعة تجيب ؟

كنت أفكر من شعوري بضآلتي في هذه الحياة .

وعجزي قادر على حبس نفسي في نفسي .

وحيداً مع فكرتي ، حراً كالله .

ثم قلت بنفسي « لماذا هذه الكبرياء ؟ ان قصيدة أبدية تثر وتحيا في الوجود . أنا مقطع من مقاطعها ، او كلمة ، ولم أصر بيتاً من أبياتها .

وما هي اذا وجدت رقة تسكرني في هذا النشيد الالهي الذي يحملني ؟

أرن مع هذا « الكل » وما عسى يجديني ان أتبع هذه الكلمة الخذبة : الحرية !

اني أوثر عليها كلمة أخرى هي : التضامن !

انها مساعدة بعضنا بعضاً ولكن متحدين . هكذا تجلى الحياة في نفسي .

وجميل جداً الشعور بهذه الكائنات ترتعش معاً في هذه الوحدة الواسعة ،

كما يرى في الشعاع الواحد اضطراب الذرات الذهبية الساطعة في النور .

انا لا أملك لي بنفسي ، وكل كائن لا شيء دون الكل ، ولا شيء لوحده .

ولكن الطبيعة كلها ترن له في كل كائن ، وعلى حضنها الفسيح تتحد جميع الكائنات متآلفة متساوية

اني لأكاد احس الورد يفتح في قلبي

واشعر من الفراشة اني ألتم الزهرة

وليس هنالك جهود مفردة ، ولا لذائذ ذاتية

فالكل متآلف متماسك ، يركض الهم والسرور من كون الى كون

وكونك هو كوني ، وكوني كونك

واريد ان يكون كونكم جميعاً كوني !

وان تكون سعادتي مشيدة على سعادة الكل

وان احمل في قلبي المتعدد — ولو تمزق — كل الانسانية

على ان فرحاً اكثر عمقاً واكثر سعة يخيل الى انه آت
حيث لا يقدر احد ان يطرب او يتألم وحده .
حيث كل شيء يتآلف ويتمزج من طرب وشقاء وفكر .
حيث يتجاوب في النفس مضياً صدى أبدي !
وهكذا يؤلف جميع الناس بأيديهم الكفاحة سلسلة طويلة ، كل حلقة خافقة
حية فيها لا تنظر الى اختها اذا ضربت الا باهتزاز
لان الالم يكل حد، — حين يجمع بين القلوب —
ورفعها مخفقة واحدة ، واذ ذاك يصبح رقيقاً كالرأفة ، شفيقاً كالرحمة
لنشم اذاً ولنفتح قلوبنا لكل هزة من هذا الكون الفسيح ،
ولنتل نصيبنا من كل الآلام التي تهز اثقالها الكائنات المتمردة
ولنطلب نصيبنا من اللمعات البعيدة التي تنتشر عليها كالآمال .
هادمين اخيراً بأنفسنا هذا السد الابدي — سدّ الذاتية —
عاكسين في انفسنا كل شعاع يصعد من الارض ، او ينحدر من السماء !
ولنكن من الطبيعة كلها عينها الصافية . .

— ٤ —

الموت الجميل

هنالك ورقة خلال رقادها في الليل ، تحدرت عليها قطرة من ندى لبثت بهجة من الشمس
قالت : اما هنالك شعاع فان يحرقني ، فأرى النهار اذ يتيقظ!
خرجت من بين الورق هاجرة الظل وقد سطعت الشمس لعينيها . . .
فاتت بنورها وصعدت قطرة بخار خفيفة على جناح شعاع الى السماء .
انا كهذه القطرة الخفيفة ، اناديك ايها النور لتخرج من فضائك العميق . . .
لقد ملت الظل الابدي وجذبني لهاتك ايها النور ، فليتوقد صفاؤك في قلبي المحب
الهي وامانيي هما ات !
ايتها الحقيقة اريد ان آتيه تحت شعاعك الطافح !
الحقيقة — كما ادري — تؤلم . وشاهدة الحقيقة قد تكون هي الموت ؟
ولكن ما هي ؟ أيتها العين انظري !